انفتاح اللغة العربية على الثقافات الأجنبية

تطور وحياة

د. نيحاء عبد الهادي(*)

تمهيد:

شكلت الحكاية الشفوية؛ المادة القصصية الأولى للقصة المكتوبة، والتي عرفها المجتمع الإنساني، منذ عرف الكتابة. وربما تُعتبر قصص بانشاتانترا، الهندية، أقدم القصص المعروفة، وهي تعود إلى آلاف السنين، وكُتبت باللغة السَّنْسكريتية في الأصل، وعنوانها يعني "مبادئ السلوك الخمسة"، التي وضعها ـ كما يُروى ـ حكيم قديم لتعليم أبناء الملك الحمقى. وتُعتبر هذه من أبرز علامات التراث الهندي في هذا المجال، وهي منتشرة هناك بأشكال متعددة، يمكن مقارنتها بالأشكال التي انتشرت بها قصص "ألف ليلة وليلة العربية"، خاصة على يد الكاتب المصري كامل كيلاني، الذي أغنى مكتبة الأطفال العربية بمثل هذه الحكايات المبسطة، التي تروي بعض حكايات ألف ليلة، بما يتناسب مع فئات الأطفال العمرية[i].

تعرَّف العالم العربي على أدب الأطفال العالمي مبكراً، من خلال ترجمة "رفاعة الطهطاوي"، لكتاب "تشارل بيرو" الفرنسي، الذي نُشر عام ١٦٩٧م، بعنوان: "الأم الإوزة"، والذي احتوى على إحدى عشرة حكاية، تعرَّف العالم من خلالها، على الشخصيات التي اشتهرت لاحقًا واستقرت في وجدان الأطفال، مثل "ساندريلاً"، و"ذات الرداء الأحمر"، و"الجمال النائم". "وتكررت بعض الحكايات بصيغة مشابهة في الحكايات التي جمعها "الأخوان جريم" من أعماق الغابة السوداء في ألمانيا، بعد ذلك بحوالي مائة وخمسين عامًا"[ii]. ومن الملاحظ اعتماد الكتابين على طريقة السرد العربية؛ الأمر الذي يدلل على تأثرهما، ببعض كتب التراث العربي.

تعرَّف الأطفال العرب على حكايات لافونتين، من خلال صياغة بعضها شعراً على يد أمير الشعراء، "أحمد شوقي"، حيث نشرها بعد ذلك في ديوانه. وبعد هذه المحاولة جاءت كتابات الرائد كامل الكيلاني، ثم الرواد المصريين: محمد فريد أبو حديد، ومحمد سعيد العريان، وعادل

(*) باحثة فلسطينية.

الغضبان، ثم كتابات: عبد التواب يوسف، وجمال أبو رية، من مصر، وزكريا تامر، وسليمان العيسى، من سوريا، وعلال الفاسي، من المغرب، وإسكندر الخوري البيتجالي، من فلسطين.

ويتعاظم اليوم الاهتمام بأدب الأطفال ولغة الأطفال، في جميع بلاد العالم. ويولي العالم العربي اهتمامًا خاصًا لتنمية الطفل الثقافية، ودليلها وجود مجلس متخصص في الطفولة والتنمية، كالمجلس العربي للطفولة والتنمية في القاهرة، والمؤتمرات الخاصة التي تُعقد للبحث في كل ما ينمّي الطفل ويساعد على بلورة شخصيته، كانعقاد مؤتمر متخصص في قضايا الطفولة، لسنتين متواليتين.

ساهمت فلسطين، بدور كبير في رعاية أدب الأطفال العرب، عن طريق "دار الفتى العربي"، التي عملت في بيروت عددًا من السنوات، ثم عملت في مصر، وأصدرت كتبًا أثرت المكتبة العربية. كما تم تأسيس مؤسسات ثقافية في فلسطين، تُعنى بالأطفال، مثل مؤسسة "تامر للتعليم المجتمعي"، التي تُعنى بالتعليم المستمر للأطفال، وهي أقدم المؤسسات التي لا تهدف للربح في فلسطين، تعنى بالكثير من النشاطات التي تتعلق بالأطفال، ومن ضمنها موضوع القراءة، ونشر كتب الأطفال. وهناك مراكز ثقافية أخرى تخصص قسمًا من إنتاجها للأطفال، مثل "مركز أوغاريت الثقافي"، الذي تأسس عام ٢٠٠٠، ويخصص ٤٠٪ من إنتاجه السنوي في النشر، لصالح كتب الأطفال، كما يعقد الكثير من ورش العمل، التي يشارك فيها كُتَّاب من الخارج، حول الكتابة للأطفال. ومركز مصادر الطفولة المبكرة، الذي يهتم بالكتب الموجهة إلى الأطفال في سنوات ما قبل الدراسة. وهذه المؤسسات الثلاث لا تهدف للربح، يشرف عليها مجلس إدارة تنتخبه الجمعية العمومية الخاصة بها. يُضاف إلى ما تقدمه بعض دور النشر الخاصة، وما تعمل على إنجازه دائرة الطفولة في وزارة الثقافة الفلسطينية، التي قامت بتوفير تمويل وإشراف على كتب تُوزع على المدارس، تنتجها المؤسسات السابقة، بالتعاون مع وزارة التربية والتعليم، التي تساهم في الاختيار.

نشأة الطفل العربي:

ينشأ الطفل العربي حرًّا، كما ينشأ الطفل في كلّ أنحاء العالم. يولد ذكيًّا، ميالاً للتساؤل، رافضًا القيود، وعاشقًا للحرية. لا يقنع بغير المنطق، ولا يخضع لغير سلطان العقل، ولا يهاب كبيرًا أو صغيرًا، ملكًا أو رئيسًا، لا يجامل أو يهادن.

يولد قادرًا على التعلم واكتساب المهارات، بسرعة تفوق سرعة البالغين بمراحل، وليس أدلّ على ذلك من قدرة الطفل الكبيرة على استخدام الكمبيوتر، وأدوات التكنولوجيا، حالما تُتاح له الفرصة، وتتوافر الإمكانات لذلك.

ويحتل القص مكانة كبيرة لدى الطفل، وتغدو الحكاية محبّبة إليه، فيستمع بآذان صاغية

وعيون مفتوحة، ودهشة غير محدودة، يطلق من خلالها العنان لخياله، معبِّرًا عن توق فطريّ لدى الإنسان منذ نشأته، إلى عالم سحريّ، يوازي العالم الذي يعيش فيه.

لكنّ الطفل العربيّ، منذ أن يبدأ بالتساؤل، ويمضي في رحلته المعرفيّة؛ يواجه سدًّا من المعوّقات والممنوعات، ونظامًا تربويًّا واجتماعيًّا أبويًّا سلطويًّا، يحاصره في البيت والمدرسة والشارع؛ مما ينتج شخصية اتكالية ضعيفة خاضعة، تكون في النهاية مرتبطة بالقبيلة والطائفة، بعيدة عن الكون الواسع الرحب، وعن التفكير العلميّ.

ولا شك في أن هناك تأثيرًا كبيرًا للصراعات التي يعيشها العالم العربي، على نشأة الطفل العربي وتفكيره: الصّراع مع الاستعمار، كما هو الوضع في فلسطين والعراق، أو الصراع الإيديولوجي، كما هو في لبنان والعراق والسودان وفلسطين. وفي حين ينتج عن الصراع مع الاستعمار مصادرة للطفولة، وحرمان من التمتّع بحقوق الأطفال؛ ينتج عن الصراع الإيديولوجي تغذية للنزعات الطائفية والمذهبية، وازدياد للتعصب، وسيادة لحكم الغاب، في غياب دولة المؤسسات.

في موازاة هذا الوضع الممزّق الذي يعيشه الطفل العربي؛ يشهد العالم نهضة علمية وتكنولوجية كبيرة، حيث تصبح العولمة واقعًا، يجدر فهمها وتجدر مواجهتها في آن. يجدر فهمها بالمعنى الإيجابي، بالاستفادة من انفتاح العالم على الثقافات المختلفة، وسرعة تبادل المعلومات، وتجدر مواجهتها بضرورة رفض سيطرة القطب الواحد، واحتكاره لأدوات العولمة، ورفض إفقار الشعوب.

كما يصبح في غاية الأهمية إعادة التأكيد على قيم التعددية الثقافية، ومحاربة أنواع التمييز الطبقي، أو الجنسي، أو المذهبي، أو الطائفي كافة.

انفتاح اللغة العربية على الثقافات الأجنبية:

في عصر العولمة وتكنولوجيا المعلومات، يمكن للأطفال الانفتاح على الثقافات الأجنبية، من خلال الترجمة إلى اللغة العربية، حيث يمكن التعرّف على تجارب الشعوب، واكتساب المعرفة، والاطّلاع على أحدث التقنيات العلمية؛ مما يكسب اللغة العربية أبعادًا متنوعة، ويضيف إليها مفردات جديدة، ويجدّدها، وينفخ فيها... إلخ.

أثر الكتب المترجمة على الطفل العربي:

سوف أتناول في ورقتي أثر الكتب المترجمة إلى اللغة العربية، على الطفل العربي، من حيث المضمون واللغة. كما يتضح من خلال الكتب المترجمة التالية:

- قصص من بانشاتانترا ـ الهند. ترجمة عصام البطران. منشورات مركز أوغاريت الثقافي للنشر

والترجمة . رام الله . فلسطين . ٢٠٠٤ .

- أسير عند الفايكنغ ـ النرويج . توريل ثورستاد هاوغر . ترجمة وليد أبو بكر . منشورات مركز أوغاريت الثقافي . رام الله . فلسطين . ٢٠٠٤ .
- رحلة إلى جوهانسبرغ ـ أفريقيا . بيفرلي نايدو . ترجمة سمر القطب . مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي والمجلس الثقافي البريطاني . رام الله . فلسطين ٢٠٠١ .
- أحمر أزرق وقليل من الأصفر ـ النرويج . بيورن سورتلاند، لارس إيباينغ . ترجمة وليد أبو بكر . مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي . رام الله . فلسطين ٢٠٠٥ .
- عالم صوفي ـ النرويج . جوستاين غاردر . ترجمة حياة الحويك عطية . دار المنى . السويد . ١٩٩٦م .

اللغة والمضمون من خلال النماذج القصصية:

تتميز القصص قيد التحليل، بسلاسة اللغة، وبساطة السرد ووفرة المعلومات، يتوافر فيها عنصرا: الإمتاع والفائدة. تعتمد على الخيال القادر على الوصول إلى عقل الطفل وقلبه معًا، فهو الخيال الذي يساعد على تثبيت المعلومة، وحفرها في وعي الطفل، دون جفاف اللغة التقريرية المدرسية. لا تستخدم القصص لغة مقعرة صعبة؛ بل تستخدم لغة حية عصرية، تأخذ من العلم فائدته ومن الحكاية سحرها، كما تعتمد على الحلول المنطقية، بتزاوج رائع بين الحقيقة والخيال. ويتجلى ذلك التزاوج بشكل مبهر ممتع، في رواية: عالم صوفي، النرويجية، التي تلقفها اليافعون من الأطفال؛ حتى إنها تُرجمت إلى أكثر من ثمانٍ وثلاثين لغة. وفي ألمانيا وحدها تعدت مبيعات الكتاب المليون نسخة.

تجمع بين القصص أيضًا، مجموعة من القيم المتناثرة بين صفحات الكتب، والتي تهدف إلى تربية شخصية إنسانية سوية، أهم هذه القيم، احترام التعددية الثقافية، وتأكيد التنوع والاختلاف، كما نجد في رواية "رحلة إلى جوهانسبرغ"، من جنوب أفريقيا، التي تتحدث عن موضوع التمييز العنصري. كما يجمع بين القصص الولع بالسؤال والرغبة في الاستكشاف، ما يرتبط عميقًا بنزوع الإنسان الفطري إلى الحرية. وتتخلل القصص قيم: الصداقة، والعمل الجاد، والمعرفة، والعقل، وتقدير المرأة، والرغبة في التغيير.

المعرفة:

إذا كان هدف القصص جميعًا الوصول إلى المعرفة، فكيف فعلت ذلك؟ وكيف حققت الإمتاع إلى جانب المعرفة؟

استخدمت بعض القصص أسلوب الرحلة وسيلة لبلوغ غايتها؛ الأمر الذي أضاف جمالاً

وتشويقًا على القصص. وتتنوع الرحلة في القصص، فمنها ما يتحقق داخل متحف فني، ومنها ما يتم بين المدينة والقرية، بواسطة الحافلة. وهناك الرحلة التي يخوضها الطفل، عبر البحر وبواسطة السفينة، ومنها الرحلة داخل وعي الطفل وفي مخيلته.

في قصة "أحمر، أزرق، وقليل من الأصفر"، تصحبنا الطفلة أنّا معها، في رحلة إلى متحف الفن. ومن خلال رحلتها تتعلم وتعلِّم في الوقت ذاته. يكلِّمنا في القصة كل من: رامبرانت، وإدفارد مونش، وفان جوخ، وبيكاسو، وآندي وارهول، وشاغال، وبول سيزان، وماتيس، وجاكسون بولوك، ومارسيل دوشان. وتتضافر اللغة والصورة والموضوع؛ لتقديم قصة ممتعة وتعليمية بامتياز.

وتبهرنا طريقة السرد القصصي، الذي يتقاطع مع الحوار المتخيَّل، بين أنّا وفان جوخ، حتى إن الطفل القارئ يحبس أنفاسه مع أنّا، ويكاد يتحسس الألوان مثلها، كما يتعرف إلى الفنانين التشكيليين، من خلالها:

"اقتربت أنّا من حقل أصفر يرسُم داخلَه رجلٌ يرتدي قبعةً صفراءَ من القش، ربما يعرف شيئًا عن تواليت دوشان. فكّرت أنّا وهي تقاطع ساقيها: فقط لا تفكر بالليمونادة. ثم قالت وهي تسرع عبر الحقل: إنَّ الأصفرَ باردٌ حقًّا.

رفع الرجل ذو القبعة الصفراء رأسه عندما أخذت أنّا تقترب منه. قال: هل ترين! الخطوط لا تلتقي. أنا حزين ووحيد لأنه يكاد يكون مستحيلاً أن أستمر في الرسم. كان صوته يرتعش في الريح.

تنهد: لا، لا، ذلك بسببي ـ أنا أرتجف كثيرًا. لن يشتروا الآن أية رسوم من فنسنت فان جوخ! تأملي: لقد رسمت كل هذه الألوان الجميلة ـ الأصفر الكبريتي، والأصفر الصمغيَّ، والأصفر الليمونيَّ، والأصفرَ الفاتحَ لليمونادة ـ ولكن لا أحد يريد رسوماتي"[iii].

وفي قصة "رحلة إلى جوهانسبرغ"، تشكِّل الرحلة التي يقوم بها الطفلان: ناليدي وتيرو؛ أسلوبًا للوصول إلى المعرفة بقضية التمييز العنصري، في جنوب أفريقيا.

وتبدأ المعرفة منذ اللحظة الأولى التي يخرج فيها الطفلان، من قريتهما إلى المدينة التي تعمل فيها والدتهما. يبدأن بالتعرف التدريجي على معنى العنصرية والنظام العنصري. تلح على ذاكرتهما الأغنيات، التي كانا يسمعانها، والتي يرددها الأطفال الكبار عن "التصريح": "إحذر رجل الشرطة لأنه حين يراك سيسألك عن تصريح المرور، وعندما تظهر التصريح سيقول لك إنه غير ساري المفعول، وهذا قد يعني أن ذلك اليوم سيكون آخر يوم في حياتك"[iv].

وفي الطريق، وفي اللحظة التي يهمان فيها بتناول برتقالة، تنعشهما وتروي عطشهما وجوعهما؛ تقف أمامهما أبسط قوانين النظام العنصري: السخرة لذوي البشرة السوداء من الأطفال، وانعدام الحقوق. يدركان هذه القوانين من خلال الصبي، الذي مد لهما يد العون، وحذرهما من المزارع الأبيض، الذي يستغل الأطفال في عمل السخرة، ويحرِّم عليهم تناول أي ثمار من الحقول التي يعملون فيها:

"وإن كنا نقوم بقطف الثمار؛ إلاّ أنَّا لا نستطيع أكلها. كان شقيق بولينغ قد شوهد وهو يأخذ كوزًا من الذرة، وكانت النتيجة أنه تعرض للضرب بالسوط إلى حد أنه لم يعد قادرًا على الوقوف"[v].

وتتعمق معرفة الأطفال، مع كل خطوة يخطوانها، في رحلتهما لمقابلة والدتهما. أحاطهما نظام التمييز العنصري من كل جانب. لم يَدَرُ في خلد الصغار أن بشرًا يمكن أن يمنعهم من ركوب حافلة بسبب لون بشرتهم: "ما إن هما باعتلاء الحافلة؛ حتى صرخ صوت في وجههما، وكان يتحدث باللغة الإنجليزية: "ماذا دهاكما؟ هل أنتما مجنونان؟"[vi]. ولم يدر بخلدهما أن الأطفال يمكن أن يكونوا عرضة، ليس للتمييز والحرمان والعمل الشاق وحسب؛ بل للضرب والاعتقال والإهانة. هذا ما شاهده الأطفال بأم أعينهم في الشارع، وأثناء الحملة البوليسية للتفتيش عن التصريح.

وفي رحلة العودة إلى البيت، يدرك الأطفال أنهم عرفوا حقائق، لم يكن بإمكانهم معرفتها، لولا رحلتهم هذه. كبروا فجأة، وأدركوا جمال بلادهم من ناحية، وقبح التمييز العنصري من ناحية أخرى: "وشعرت ناليدي فجأة بأن العالم من حولها كبير جدًّا. فقبل رحلتها للقاء أمها، لم تكن تظن أن مثل هذه الأراضي والمساحات موجودة، ولم تكن تملك أية فكرة عن المدينة، ولم تكن قد التقت أبدًا بإنسان مثل غريس، والأهم من ذلك كله أنها لم تكن تعرف أمها على النحو الذي بدأت تكتشفه الآن"[vii].

وفي قصة "أسير عند الفايكنغ"، تتخذ المعرفة مسارًا مميزًا. يعرف الأطفال من خلالها معنى العبودية ومعنى الحرية. وتكون الرحلة وسيلة الأطفال للخلاص من العبودية والتحرر. تبدأ منذ اختطاف الطفلين: باتريك وسينوفا، من جزيرتهم إيمرلاند، وتسخيرهما للعمل عبدين عند إيرل نرويجي، يغير اسميهما إلى: رايم وتير. يتعرف الأطفال على حياة الفايكنغ في القرن العاشر، هؤلاء المحاربين غلاظ القلوب، الذين يستخدمون سفنًا خاصة بهم، لغزو جزر آمنة، باحثين عن الذهب وعن عمالة رخيصة. يقتلون ويدمرون، ثم يأسرون رجالاً ونساء وأطفالاً؛ لاستخدامهم في العمل الشاق، في الحقول والمنازل.

تتأرجح حياة الطفلين المخطوفين، بين الواقع القاسي، عالم العبودية، (حيث يغيِّر السادة أسماءهما، وحيث يُعاملون كما تُعامل الحيوانات، وحيث يُحرمون من أية حقوق إنسانية)، وبين الماضي الجميل الذي يحنَّان إليه، ويعرفان الآن قيمته، أكثر من أي وقت مضى. عالم الحرية.

ولا يتعرف الطفلان على وحشية رجال الفايكنغ وحسب؛ بل يتعرفان في الوقت نفسه على الظلم الإنساني، الذي يسببه زعماء القبائل في كل العالم: "زعماء القبائل لا يختلفون في أي مكان. إنهم لا يفعلون سوى الحرب والصراع. وإذا لم يحصلوا على ما يريدون، فإن الناس هم الذي يعانون"[viii].

لكن الحروب، لا تقف إلى جانب الفايكنغ دائمًا، كما يتعلم الأطفال، إذ يمكن أن تدور الدائرة على القوي، وتضعفه، كما يمكن أن تقوِّي الهزائم الضعيف، وتمده بأسباب القوة. وحين هُزم الفايكنغ في معركتهم مع قبيلة معادية؛ لاحت فرصة الهرب: "وعندما يتحارب الأقوياء، لا ينظرون إلى أين يهرب العبيد"[ix].

تسلل الطفلان بعيدًا، بمساعدة مجموعة رجال ونساء، منتهزين فرصة انشغال الفايكنغ بالمعارك الطاحنة. ومن الملاحظ أن المجموعة الهاربة، كانت مجموعة شجاعة جدًّا، آمنت بالحرية وعملت من أجل تحقيقها بدأب وصبر شديدين، وكان الطفلان أول من تحلى بالشجاعة النادرة، منذ بداية الرحلة إلى نهايتها.

استخدمت المؤلفة عنصر الطبيعة بما يتناسب مع الحالة النفسية للطفلين أثناء الرحلة، ففي رحلة الأطفال نحو العبودية؛ تعوي الرياح ويزأر البحر: "كانت سفينة الفايكنغ تهبط وترتفع مع الأمواج. في مكان بعيد من البحر، بدأت الريح تهب بقوة هائلة. كانت تعوي، والبحر يزأر ويضطرب. وعندما أخذت تضرب الشراع المربع وكأنه يتمزق في أية لحظة، توقف الأب عن صلاته وجأر: من الجيد أن يسحبنا الفايكنغ بسرعة، حتى لا نقضي فوق السفينة"[x].

وفي رحلة الأطفال نحو الحرية؛ يتبدل حال الرياح وحال البحر، وتصفو السماء: "كانت الريح قوية. والبحر يضرب جوانب السفينة بصوت عال، وهناك أصوات غريبة في الأعماق. أما في الأعلى، فقد كانت السماء مليئة بالنجوم الساطعة"[xi].

وعندما تلمع فكرة الحرية؛ ينسى الطفلان اسمَي العبودية، وتعود أسماؤهما لترنَّ من جديد: باتريك وسونيفا.

وتتخذ الرحلة منحًى آخر في قصة "عالم صوفي". هي رحلة المعرفة الفلسفية، من خلال أسلوب الحكاية داخل الحكاية؛ الأمر الذي يحيلنا فنيًّا إلى التكنيك الساحر لحكايات "ألف ليلة وليلة"؛ ولكن بأسلوب عصري، يمتزج فيه العلم بالفلسفة بالتشويق.

منذ أول صفحة في الرواية، يبرز السؤال كعنصر أساسي في المعرفة، هذا السؤال المرتبط بروح العصر وبالتقدم العلمي. لا ترضى الفتاة اليافعة بالمسلَّمات، منذ الفقرة الأولى من الرواية. "كانت جورون ترى أن الدماغ البشري هو جهاز منظم متطور، أما صوفي فتشعر أنها لا توافقها الرأي، لا يمكن أن تحصر الكائن البشري بمجرد آلة. أليس كذلك؟"[xii].

ويرتبط السؤال والتأمل معًا في وعي الفتاة اليافعة صوفي: "ألم يكن من الغريب رؤية كيف يأخذ كل شيء في النمو، في هذه المرحلة من السنة؟ ما الذي يسمح لمجموع النبات بالانبثاق من الأرض الجامدة، لمجرد أن يجلو الطقس، وتختفي آثار الثلج؟"[xiii].

وينفتح السؤال على السؤال، داخل وعي الصبية، منذ تلقت رسالة صغيرة، تحمل سؤالاً من كلمتين، وضعها مجهول عبر بريدها. كان السؤال: من أنت؟ ثم أتبعه برسالة أخرى، تحمل سؤالاً آخر: من أين جاء العالم؟

"لكأنها كانت حتى الآن دمية، وجاءت ضربة سحرية تدفع فيها الحياة"[xiv].

"ولأول مرة في حياتها، رأت أنه لا يمكن العيش دون التساؤل عن الأصول على الأقل. لقد أعطتها الرسالتان الغامضتان قدرًا من النشوة جعلها تقرر الجلوس بهدوء في كوخها"[xv].

وتستخدم الرواية عنصر التشويق، عبر استخدام عنصر اللغز، الذي يصاحب الأسئلة المتوالية التي تجدها صوفي في صندوق بريدها.

ويظهر أثر الأسئلة الفلسفية على شخصية صوفي، التي لم تعد أبدًا كما كانت. "فجأة انتبهت إلى الناس، سواء في المدرسة أو خارجها، يهتمون بأشياء عابرة تمامًا"[xvi].

ويبدأ اللغز بالانكشاف تدريجيًّا، مع الرسالة الكبيرة، التي تعدت الكلمتين، إلى درس في الفلسفة. ونعجب كيف يمكن أن تغدو الفلسفة درسًا سهلاً جميلاً، يدرَّس للناشئة على هذا النحو الممتع! ومن خلال الدرس الفلسفي، تعرف صوفي، كما يعرف القارئ، ما يجمع الأطفال بالفلاسفة: "الفيلسوف هو إنسان لم يستطع يومًا أن يتعود على العالم. والعالم يظل، بالنسبة له شيئًا غير قابل للتفسير، شيئًا غريبًا، ملغزًا. وهكذا يمتلك الفلاسفة والأطفال، صفة كبيرة مشتركة، يمكننا القول إن الفلاسفة يحافظون، طوال حياتهم، على جلد رقيق، كجلد الأطفال"[xvii].

وتتوالى دروس المعرفة الفلسفية، عبر العصور، من التفكير الأسطوري، إلى التفكير العقلاني، ومنذ الفلاسفة الإغريق الأوائل، حتى فلاسفة العصر الحديث.

ويربط الكاتب بين الفلسفة والحياة بطريقة خلاّقة. نرى تأثير الفلسفة على صوفي، حيث

تعلمت التفكير بطريقة فلسفية، وعرفت قيمة العقل المنظم: "عندما انتهت صوفي من قراءة درس أرسطو؛ أحست برغبة قوية في ترتيب الأشياء، وكان أول ما فعلته أنها أفرغت كل أدراج الخزانة، ومدت كل شيء على الأرض. كان من المهم أن تبدأ من الصفر. ثم أخذت تطوي ملابسها قطعة قطعة بعناية، وتعيدها إلى الرفوف، التي كان عددها سبعة، فخصصت واحداً للجوارب والملابس الداخلية، واحداً للسراويل... إلخ.

من الآن فصاعداً ستكون كل الأشياء منظمة، ولا ينطبق هذا على الغرفة فقط؛ فقد فهمت أنه من المهم تنظيم مفاهيمنا وأفكارنا "[xviii].

وتبين الرواية الفارق بين معلم المدرسة التقليدي والفيلسوف الحقيقي: "أنا لا أتعلم شيئًا مهمًّا في المدرسة، ألا ترين أن الفارق الكبير بين معلم المدرسة والفيلسوف الحقيقي يكمن في أن المعلم يعرف كمًّا من الأشياء لا يتوقف عن تعليمها لطلابه بالقوة، بينما يحاول الفيلسوف أن يجد إجابات عن الأسئلة التي يطرحها بالمشاركة مع تلاميذه؟ "[xix].

وتنبع أهمية الدروس الفلسفية، من أن الفلسفة تدعو إلى التأمل والتمهل، في مواجهة التسرع، والعمل الفهلوي، والسطحية، مما يسم عصرنا الحديث.

ويشرح الكاتب أهمية مفهوم التنوع والاختلاف وضرورة تقُّبل الآخر، من خلال ارتباط الفلسفة بالاكتشافات العلمية، والعلماء، الذين أثبتوا أن الأرض لم تعد مركزًا للكون: كوبرنيكس، الذي أثبت أن الشمس لا تدور حول الأرض، وغاليليو، الذي اكتشف قانون الجمادية، ونيوتن، الذي صاغ قانون الجاذبية الكونية:

"منذ أن برهن علماء الفلك على عدم وجود مركز مطلق للكون؛ أصبح هناك عدد من المراكز بعدد البشر "[xx].

ويوظف الكاتب في روايته، وفي منتصف دروس الفلسفة الجادة العلمية؛ شخصيات قصصية عالمية معروفة للأطفال، مثل أليسْ التي يعرفها الأطفال من خلال: "أليسْ في بلاد العجائب"؛ لتساهم بدورها في درس الفلسفة، بواسطة الشراب العجيب الذي تقدمه لصوفي، والذي يمكِّنها من استيعاب درس فلسفي حول الفلسفة الكلية (الحلولية)، والفلسفة الفردية.

وتتداخل وتتوازى حياة صوفي بحياة هيلد، كما تتداخل وتتوازى حياة ألبرتو كنوكس بحياة الجنرال ألبرت كناغ، ويمتزج الواقع بالخيال، والشخصيات الروائية بالمتخيلة بطريقة إبداعية، على مدار صفحات الرواية.

الصداقة:

تؤكد القصص على أهمية الصداقة بين الأطفال، على ألسنة الإنسان والحيوان والطير. في قصة "الأصدقاء الأربعة"، من قصص: "بانشاتانترا" الهندية، تبين القصة قيمة الصداقة بين ما يبدو متنافرًا في الطبيعة: صداقة بين سلحفاة وفأر وغراب وأيِّل، يساعد كل منهم الآخر، ليس وقت الرخاء وحسب؛ بل وقت الضيق أيضًا: حين وقعت الأيل في شباك الصياد؛ سارع أصدقاؤها جميعًا لإنقاذها، رغم تفاوت إمكانات كل منهم. وعندما وقعت السلحفاة في الشبكة نفسها، ولم تتمكن من الهرب بسرعة؛ سارع الأصدقاء إلى إنقاذها باستخدام الذكاء والحيلة والإيمان بالصداقة.

"عاش الأصدقاء الأربعة فرحين في الغابة سنوات عديدة، يعملون معًا، ويساعد بعضهم بعضًا"[xxi].

وتتجاوز الصداقة، كما يراها الأطفال قواعد السن واللون والجنس، مما يراعي الكبار عادة، عند اختيار الأصدقاء. في "رحلة إلى جوهانسبرغ"، يعقد الطفلان ناليدي وتيرو صداقة، مع سيدة من عمر والدتهما، هي "غريس مباثا". ونعرف كيف يفهم الأطفال الصداقة، من خلال حديثهما عن الاختلاف بين والدتهما والصديقة، رغم عمرهما المتقارب. تحدثهما غريس، باللغة نفسها، التي تتحدث بواسطتها إلى الكبار، وليس كما تعودا أن يسمعا من والدتهما. "نظر تيرو ونااليدي إلى بعضهما البعض بشيء من الاستغراب. فهذه المرأة تبدو مختلفة عن والدتهما، فماما لم تتحدث إليهما أبدًا بمثل هذه اللهجة"[xxii].

ومن خلال هذه الصداقة؛ يصل الطفلان إلى معرفة أعمق بمواضيع، كانت عصية على الفهم بالنسبة إليهما، مثل التمييز العنصري. هذا التمييز الظالم غير الإنساني، والذي يرتبط بمفاهيم تجعل بعض الأطفال والشباب والكبار يقدمون حياتهم من أجل نيلها، مثل الحرية: "تشتت أفكارها في أكثر من اتجاه؛ أحداث سويتو المؤلمة، ديومي، تلك الكلمة بالأحرف الكبيرة ـ الحرية"[xxiii].

وكما قرأنا في قصة "عالم صوفي"؛ يصبح السؤال عند الأطفال رديفًا للمعرفة والحرية. ويرتبط مفهوم الحرية بمفهوم الأمان الإنساني، كما تعبِّر ناليدي: "ماذا تعني تلك الكلمة حقًّا؟ هل تعني أنهما سيتمكنان من العيش إلى جانب أمهما؟ هل تعني أنهما سيتستطيعان الذهاب إلى مدرسة ثانوية؟ لكن غريس قالت إن الأولاد خرجوا متظاهرين لأنهم كانوا مرغمين على تعلم أشياء غير صحيحة وغير مفيدة في مدارسهم. ترى ماذا سيتعلمان في المدارس التي تنعم بالحرية؟ تعبت ناليدي من تزاحم الأسئلة في ذهنها، فغطّت في نوم عميق"[xxiv].

ومثلما يعقد الطفلان صداقة مع غريس؛ تعقد الطفلة في "عالم صوفي" صداقة مع رجل في عمر والدها، هو أستاذها الفيلسوف ألبرتو، الذي يكون دليلها إلى المعرفة، والذي يعوِّضها عن صداقة والدها القبطان، الذي يسافر بعيدًا، ويغيب عن البيت كل أيام السنة تقريبًا، أو صداقة والدتها المشغولة عنها بعملها، التي تصل البيت في وقت متأخر.

وفي أسير عند الفايكنغ؛ تتوطد الصداقة بين الطفلين، بين "باتريك"، و"سيغورد" ـ ابن الإيرل الكبير، الذي خطف الطفل باتريك وجعله عبدًا في خدمته. ومن خلال الرواية تتبين السعادة التي تمنحها الصداقة للأطفال، فباتريك يحس بالسعادة رغم بؤسه ومعاناته الكبيرة؛ بعد أن اكتسب صداقة سيغورد.

وتتوطد عُرَى الصداقة بين الصبيين؛ حتى إنهما يمزجان دمهما بواسطة السكين، ويُقْسمان على الإخلاص الأبدي: "سوف أجرح إصبعي، وتفعل أنت ذلك. وإذا مزجنا دمنا فسوف نظل صديقين، في الحياة وفي الموت!"[xxv].

تقدير المرأة:

نلاحظ أن القصص تقدم صورة غير نمطية للمرأة، تتحدى الصورة التقليدية التي يرسخها المجتمع لها. تحتل الفتيات في القصص موقعًا مميزًا. فهن إما بطلات القصص الرئيسات: "عالم صوفي"، و"أحمر أزرق وقليل من الأصفر"، أو المبادرات في قصص أخرى: "رحلة إلى جوهانسبرغ"، أو ذوات قدرات مميزة في القصص التي يحتلَ الفتيان فيها دورًا رئيسًا: "أسير عند الفايكنغ". تبرز القصص ذكاء الفتيات، وشجاعتهن، وقابليتهن للتعلم، وحكمتهن، وقدرتهن على النقاش والحوار.

يختار المؤلفان بيورن سورتلاند، ولارس إيابنغ، في قصتهما: أحمر، أزرق وقليل من الأصفر، فتاة ذكية شجاعة توّاقة إلى المعرفة؛ لتكون بطلة قصتهما. ومنذ السطر الأول يبرران اختيارهما على لسان العم هارولد: "كنت تتطلعين إلى المجيء، أليس كذلك؟ هذا ما استفسر عنه العم هارولد، الذي اصطحب أنّا معه إلى حيث يعمل في متحف الفن"[xxvi].

ويمثِّل العم هارولد، الأب والعم والأستاذ التقليديين، الذين يطلبون من الأطفال الطاعة والتزام الأوامر وعدم توجيه الأسئلة. أما أنّا فتمثل رغبة الطفل الدفينة إلى المعرفة وتوجيه الأسئلة وعدم التقيد بالتعليمات.

وفي "رحلة إلى جوهانسبرغ"، تكون الفتاة ناليدي هي المبادرة والمخططة لرحلتها مع تيرو خارج القرية. ويبدأ الفصل الأول من الرواية بعنوان دالٍّ: خطة ناليدي. "كان واضحًا أن ناليدي، ابنة الثالثة عشرة، قد اتخذت قرارها النهائي. كانت ناليدي تكبر أخاها بأربع سنوات.

وكان تيرو من جهته يدرك جيدًا أن أخته عندما تقرر شيئًا لا تتراجع عنه أبدًا "[xxvii].

وتتبين بعض الأفكار المتعلقة بالتمييز ضد النساء، ومنذ الطفولة، في "أسير عند الفايكنغ". ففي جزيرة إيرلاند، وفي بيئة قروية، لم تجر العادة أن تشارك الفتيات في ألعاب الفتيان؛ تصر سونيفا على اللحاق بأخيها وبالذات في ألعابه الأكثر إثارة مما يثير غيظه؛ ولكنه اضطر إلى الاعتراف بشجاعتها ومهاراتها التي لا تقل عن مهاراته أبدًا: "كانت تشارك في الألعاب، لأن الأولاد يحتاجون لمن يقوم بربط اللصوص عندما يسقطون عن الشجر. لكنها في أحد الأيام وضعت يدها على واحد من القسيّ، فكانت للمساعدة الصغيرة يد أثبت من يد المقاتلين أنفسهم. ذلك ضايق باتريك، فدعا إلى إقرار قانون يقول إن الرماة الملكيين في المستقبل يجب أن يكونوا من الرجال "[xxviii].

ويظهر تقسيم العمل بين الجنسين، كما يفهمه رجال القرية، وأطفالها ورجالها، من خلال قراءة تفكير باتريك، الذي أحس بالزهو، حين سلَّمه والده قيادة المهرة؛ بينما عهد بالعناية بها إلى سينوفا: "سلَّم الوالد الرسن لباتريك، وتركه يقود المهرة إلى المزرعة. ألقى باتريك نظرة جانبية طويلة على سونيفا. كانت أصغر منه بعام، وإلى جانب ذلك كانت فتاة. إنها تستطيع حقًّا أن تعتني بالعجول والبقرة المنقطة. وبدا الأمر كأن القديسين في الأعالي كانوا يقرءون أفكاره، لأن والده قال فجأة: أعتقد أن سونيفا الصغيرة ستقوم برعاية المهرة. إن لها طريقتها الرائعة مع الحيوانات "[xxix].

لكن باتريك لم يدرك أن تنوع الأعمال التي تستطيعها سينوفا، لأنها فتاة، سوف تزيدها قوة وصلابة، ودليل ذلك إجابتها الشجاعة أمام الإيرل عند مثولها أمامه بعد اختطافها، مقابل إحساسه بالخوف: "سونيفا فتاة معتزّة بنفسها دائمًا. ساعدت أمها في توليد البقرة، ولم تكن تخشى الذهاب إلي الحقل، حتى وإن كان الليل معتمًا كما في كيس مقفل. لكن باتريك صار خائفًا ومذهولاً عندما نصبت ظهرها وقالت: نحن نحمل أسمَيْ باتريك وسونيفا، ونحن أكبر أبناء نيل. والدنا مزارع أيرلندي حر. ارتعش صوتها قليلاً، لكنها رفعت ذراعها وأشارت إلى صدر المرأة المنتفخ: ذلك البروش يعود إلى أمي. القديس باتريك سوف يعاقبكم على السرقة "[xxx].

وفي الرواية، ومن خلال وصف حياة العبودية؛ تتضح وسائل التمييز ضد النساء. كانت تُرسَل المولودات الإناث إلى الغابة للتخلص منهن، كما كن يتسلمن حصصًا أقل من الطعام. أما في رواية "عالم صوفي"، فنجد انتصاراً كبيراً لجهد النساء، واعترافًا بعملهن، وإنصافهن كمفكرات وعاملات في كل حقول المعرفة، وعلى رأسها الفلسفة.

ومنذ بداية الرواية، وبوعي تاريخي؛ يتعرف القارئ على موقع النساء من الفلسفة، ويتعرف

على مسألة التمييز ضد النساء، وعلى تهميشهن عبر التاريخ:

"أقول "فيلسوف" ولا أقول فيلسوفة، لأن تاريخ الفلسفة محصور بالرجال. فقد كانت النساء مقموعات، كنساء، وككائنات مفكّرة، مما يؤسف له، لأننا خسرنا بذلك شهادات كثيرة. ولم تستطع المرأة أن تأخذ مكانها في تاريخ الفلسفة، إلاّ في القرن العشرين"[xxxi].

ويتضح من خلال الرواية، الظلم التاريخي الذي لحق بجنس النساء، عبر العصور: "لقد سيطر الرجال على حياة الكنيسة، مما لا يعني بالضرورة، عدم وجود نساء مفكرات، إحدى هؤلاء كانت تُدْعَى، مثلاً، هيلد غارد دو"[xxxii].

وتتعرف صوفي على دلالة اسمها واسم هيلد: "صوفيا" ودورها خلال القرون الوسطى، في الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية، و"هيلد" ودورها في علاج المرضى، ودراسة النبات والطبيعة.

وتبيِّن الرواية أن المصادر العلمية، تشكل أحيانًا أداة للتمييز ضد النساء، فالموسوعة تخلو من أي أثر للاسمين، أو غيرهن ممن أسهمن في الفلسفة عبر العصور:

"هكذا هو الحال دائمًا! فكلما تعلق الأمر بامرأة أو بشيء مؤنث، أصيبت الموسوعة بالخرس. فهل أن مجلسًا للحماية الذكورية قد قام بمراقبة الموسوعة؟

لقد كانت هيلد غارد دو بينجن راهبة، كاتبة طبيبة، عالمة نبات، وعالمة طبيعة، ورغم ذلك فلا يوجد سطر واحد عنها في الموسوعة. أية فضيحة! لم تسمع هيلد أبدًا عن "طبيعة الأمومة" فيما يُسمى "صوفيا" لم يستحق سطرًا واحدًا. اللهم إلاّ ذكر كنيسة "أيا صوفيا" في القسطنطينية، وتعني الحكمة المقدسة"[xxxiii].

وتكشف هيلد عن تمييز الموسوعة المتواصل ضد النساء، من خلال خلوها أيضًا من اسم الكاتبة الفرنسية: غوج ماري أوليمب (١٧٤٨-١٧٩٣)، التي لعبت دوراً سياسيًّا اجتماعيًّا ثقافيًّا كبيراً إبان الثورة الفرنسية، حيث نشرت كتيبات حول قضايا اجتماعية، والعديد من المسرحيات، ونشرت عام ١٧٩١م إعلانًا عن حقوق المرأة، وأُعدمت عام ١٧٩٣م لأنها تجرأت وانتقدت روبسبير، ودافعت عن لويس السادس عشر:

"إن الموسوعة لا تخون ذكوريتها أبدًا، وتقول كلمة واحدة عن المرأة التي أُعدمت بسبب التزامها السياسي لتحرير المرأة، أليس هذا فضيحة؟"[xxxiv].

الحس النقدي:

يتخلل الحس النقدي جميع القصص، الأمر الذي يدفع الأطفال إلى التفكير وإلى التغيير الإيجابي، وصولاً إلى الحرية. ففي قصة "رحلة إلى جوهانسبرغ"، توصلت ناليدي إلى قرار

يُرْضي طموحها، ويُظْهر رفضها لنظام التمييز العنصري، الذي يعلِّمها ويعلِّم زملاءها الكتابة، كي يتمرنوا على كتابة الرسائل التي تؤهلهم ليصبحوا خدمًا. سوف تكتب في رسالتها رغبتها في أن تكون طبيبة، لتخدم نفسها وأسرتها وقريتها، ولتكون حرة.

وفي قصة "أحمر، أزرق وقليل من الأصفر"، تتمكن الطفلة أنّا من رسم لوحة البحث عن التواليت، التي تشبه أحد أعمال جاكسون بولوك، بعد رحلتها داخل متحف الفن، التي تعبر فيها عن إحساسها برفض قيود المعرفة والحرية.

وفي قصة "عالم صوفي"، تلتقي المعرفة الفلسفية بالعلم؛ فلا تعود صوفي كما كانت؛ إذ تدفعها المعرفة إلى التأمل، ويدفعها التأمل إلى مزيد من الأسئلة والمعرفة، من خلال حس نقدي يصاحبها طيلة القص، حتى إن صوفي، الشخصية الروائية، تتمرد على قيود المؤلف، وحبكته الروائية، وتحاول التدخل لتغيير نهاية الرواية، كي تنال حريتها.

وبعد، نقرأ القصص على الشكل التالي:

السؤال> التأمل> التعمق> التنوع> الحسّ النقدي> التغيير> الحرية

المراجع:

١. بانشاتانترا ـ الهند. ترجمة عصام البطران. منشورات مركز أوغاريت الثقافي للنشر والترجمة. رام الله. فلسطين. ٢٠٠٤.
٢. ثقافة الطفل العربي. مجموعة من الكتاب. مجلة العربي، الكويت، ٢٠٠٢: ص: ١٤٧.
٣. ثورستاد هاوغر، توريل. أسير عند الفايكنغ ـ النرويج. ترجمة: أبو بكر، وليد. منشورات مركز أوغاريت الثقافي. رام الله. فلسطين. ٢٠٠٤.
٤. سورتلاند، بيورن، ولارس إيابنغ. أحمر أزرق وقليل من الأصفر ـ النرويج. ترجمة: أبو بكر. وليد. مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي. رام الله. فلسطين ٢٠٠٥.
٥. شرابي، هشام. النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي. مؤسسة الدراسات العربية. بيروت.
٦. شرابي، هشام. مقدمات لدراسة المجتمع العربي. مؤسسة الدراسات العربية. بيروت.
٧. غاردر، جوستاين. عالم صوفي ـ النرويج. ترجمة: عطية، حياة الحويك. دار المنى. السويد. ١٩٩٦م.
٨. نايدو، بيفرلي. رحلة إلى جوهانسبرغ ـ أفريقيا. . ترجمة سمر القطب. مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي والمجلس الثقافي البريطاني. رام الله. فلسطين ٢٠٠١.

الهوامش:

(i)بيصار، صلاح. "بيكار.. رائد رسوم الأطفال" في ثقافة الطفل العربي. مجموعة من الكتاب. مجلة العربي، الكويت، ٢٠٠٢: ص: ١٤٧.

(ii) قنديل، محمد المنسي. "مشكلات الكتابة للطفل العربي" في ثقافة الطفل العربي. مجموعة من الكتاب. مجلة العربي، الكويت، ٢٠٠٢: ص: ٤١.

(iii) أحمر أزرق وقليل من الأصفر ـ النرويج. بيورن سورتلاند، لارس إياينغ. ترجمة وليد أبو بكر. مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي. رام الله. فلسطين ٢٠٠٥. ص. ١٠ـ١٣.

(iv) رحلة إلى جوهانسبرغ ـ أفريقيا. بيفرلي نايدو. ترجمة سمر القطب. مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي والمجلس الثقافي البريطاني. رام الله. فلسطين ٢٠٠١. ص. ١٦.

(v) المصدر نفسه. ص. ١٩

(vi) المصدر نفسه. ص. ٢٨.

(vii) المصدر نفسه. ص. ٥٣

(viii) أسير عند الفايكنغ ـ النرويج. توريل ثورستاد هاوغر. ترجمة وليد أبو بكر. منشورات مركز أوغاريت الثقافي. رام الله. فلسطين. ٢٠٠٤. ص. ٤٠.

(ix) المصدر نفسه. ص. ١٠٦.

(x) المصدر نفسه. ص. ٢٢.

(xi) المصدر نفسه. ص. ١٢٩.

(xii) عالم صوفي ـ النرويج. جوستاين غاردر. ترجمة حياة الحويك عطية. دار المنى. السويد. ١٩٩٦م. ص. ٧.

(xiii) المصدر نفسه. ص. ٧.

(xiv) المصدر نفسه. ص. ١٠.

(xv) المصدر نفسه. ص. ١٢.

(xvi) المصدر نفسه. ص. ١٧.

(xvii) المصدر نفسه. ص. ٢٥.

(xviii) المصدر نفسه. ص. ١٢٨.

(xix) المصدر نفسه. ص. ٨٠.

(xx) المصدر نفسه. ص. ٢٢٤.

(xxi) قصص من بانشاتانترا ـ الهند. ترجمة عصام البطران. منشورات مركز أوغاريت الثقافي للنشر والترجمة. رام الله. فلسطين. ٢٠٠٤. ص. ٦٤.

(xxii) رحلة إلى جوهانسبرغ. ص. ٣٠.

(xxiii) المصدر نفسه. ص. ٤٧.

obeikandl.com

(xxiv) المصدر نفسه . ص . ٤٧ـ٤٨ .
(xxv) أسير عند الفايكنغ . ص . ٩٩ .
(xxvi) أحمر أزرق وقليل من الأصفر . ص . ٣ .
(xxvii) رحلة إلى جوهانسبرغ . ص . ١٣ .
(xxviii) أسير عند الفايكنغ . ص . ٩ .
(xxix) المصدر نفسه . ص . ١٣ .
(xxx) المصدر نفسه . ص . ٢٧ .
(xxxi) عالم صوفي . ص . ٣٨ .
(xxxii) المصدر نفسه . ص . ١٩٦ .
(xxxiii) المصدر نفسه . ص . ٣١٤ .
(**xxxiv**) المصدر نفسه . ص . ٣٣٥ .

obeikandl.com